المستشرقون الراحلون

نلّينو (١٩٣٨) ــ فنسنك (١٩٣٩) ــ مارغوليوث (١٩٤٠) ــ غوتيه (١٩٤٠)

أصيب علم الاستشراق في السنتين الاخيرتين بخسارة من اشهر اعلامه البارزين هم نلّينو وفنسنك ومارغوليوث وغوتيه. وقد طالما وقف قرّاء مجلتنا من اساتذتهم واعمالهم. فرأينا من الواجب ان نخصّ كلاً منهم بدرس في حياته وآثاره وتأثيره في تقدم الابحاث الشرقية، بادئين منهم بكارلو الفونسو نلّينو، وهو اولهم في ترك هذا العالم رحمه الله. وقد لخصنا في هذا المقالاً واسعاً كتبه في مجلة «الشرق العصري» (*Oriente Moderno*, XVIII, 459-482) المستشرق لاتي دلاتيدا، آخذين بعض التفاصيل عن اخت الفقيد وابنته، وعما كان يتبادل واياه من محادثات وذكريات.

كارلو الفونسو نلّينو

١٨٧٢-١٩٣٨

نشأته شأنه ــ ابحاثه الاولى

ولد كارلو الفونسو نلّينو في تورينو في ١٦ شباط ١٨٧٢، من والد يسمونه اسمه يوحنا كان استاذاً شهيراً في الكيمياء، ومن والدة انجليزية تدعى حنة ونتيني.

وكان لا يزال حديث السن لما نُقل ابوه الى اوربين لاسباب وظيفته. فانتقل اليها. وتبع كل دروس المعاهد الابتدائية والوسطى. اما تربيته البيتية فكانت قاسية. وكثيراً ما كان يروي بنفسه بعض النكات اللطيفة عن قساوة والده المقرونة بالعطف في الاعوام الاولى لحداثته. ومما لا شك فيه انه مدين لهذه

كارلو ألفونسو نلّينو

١٨٧٢ – ١٩٣٨

داود صموئيل مارغوليوث

١٨٥٨ – ١٩٤٠

التربية في مداومته على السارك الامثل الذي عرف ان يختطه لنفسه طول حياته ، فجعله يمتاز على اقرانه منذ الاعوام الاولى لدراسته.

وكان منذ حداثته مولعاً ولعاً خاصاً بالجغرافية وكتب الرحلات . يتخيّل ، كساتر اترابه ، انه سوف يصبح رائداً كشافاً . بيد ان ما ينشأ عند الاكثرية من العاب المخيلة الصبيانية ، فيضمحلّ جنيناً ، اصبح عنده داعياً للدرس المتواصل وللتحضّر الاسلوبي حتى انه توصّل ، وهو يكاد يبلغ العاشرة من عمره ، الى ان يرسم ، استناداً الى معلومات اخذها من اخبار الاسفار ، رسوماً جغرافية مبتكرة لمناطق في افريقية الوسطى لم تكن تُعرف حق المعرفة الى ذلك الحين . وبعد ان ملك في وقت قصير ناصية اهم اللغات الاجنبية ، بمداومته على صفوف مسائية كانت تنظمها بلدية اودين ، شعر بدافع يدفعه الى اقتحام العربية ايضاً ، تلك اللغة المنتشرة في صقع كبير من آسية وافريقية . فبدون استاذ وبدون غراماطيق ، بدأ يحلّ الخط العربي ويتملّك من الاصول الصرفية واللغوية بمؤنة كتاب منتخبات قديم وقع صدفة بين يديه في مكتبة اودين البلدية . ولما رأى والداه الجهد الجهيد الذي كان يبذله اهدياه غراماطيقاً من تأليف سابيتو (Sapeto)[1] ، وبواسطة هذه المساعدة الضئيلة اولاً ، ثم بواسطة كتب اخرى كان يحصل عليها بالتتبع تقدم في معرفة هذه اللغة تقدماً جعله يملك الاسس اللازمة لفهم النصوص حتى الصعبة منها . وذلك قبل ان يجتاز عتبة الجامعة . وابتدأ ايضاً في اودين ، على ما يظهر ، بدرس العبرانية والسريانية .

وقد سجّل اسمه في آخر سنة ١٨٨٠ في الفرع الادبي من جامعة تورينو ، بعد

---

١) يوسف سابيتو : غراماطيق عربي عامي لاستعمال المدارس الخاصة ، فلورنسا – جنوى Giuseppe Sapeto : *Grammatica araba volgare ad uso delle scuole tecniche*, Firenze-Genova 1867. ١٨٦٧ .

كان سابيتو (١٨١٤–١٨٩٥) رسولاً سامياً ، وصاحب الفضل الكبير في معرفة جغرافية الحبشة وشعبها . وكان استاذ العربية مدة وجيزة في معهد العلوم العالية في فلورنسا ومدة طويلة في معهد التعليم الخاص في جنوى : فكان يتقن هذه اللغة (واكثر منها اللغات الحبشية السامية) غير ان النقص كل النقص كان في استعداده العلمي .

قليل من التردد . لانه كان يفتكر بانتمائه الى جامعة بَدوي لقربها من البيت العائلي . وكانت تدعوه الى توريتو عائلة كارله (Carle) التي كان يمتّ اليها بصلة القرابة . ثم وجود منبر للدروس الشرقية يحتلّه المستشرق إيتالو بيتزي (Italo Pizzi) صاحب الباع الطولى في اللغة الفارسية ، والذي كان يزاول ايضاً تدريس العربية وسائر اللغات السامية . فاتخذه نلّينو استاذاً[1] وحفظ له طول حياته عاطفة قوية من الاحترام وعرفان الجميل[2] . وفي الوقت نفسه دفعه ميله للدروس الجغرافية الى ان يتتلمذ لگويدو كورا (Guido Cora) من اعظم العلماء الايطاليين في الجغرافية في ذلك الوقت[3] . ومن هذا النفع العلمي المزدوج ظهر منذ السنة الاولى لدراسته اول تأليف لنلّينو نشره كورا في مجلته كوسموس (Cosmos)[4] مع مقدمة ينبّه فيها ان التأليف قد تمّ سنة ١٨٩٠ على انه لم يظهر الا بعد سنتين . والحقه نلّينو بملحق اتخذه من فحص بعض المخطوطات العربية الموجودة في مكتبة موناكو الملكية حيث اقام من ٢٦ آب الى ٢٤ تشرين الاول ١٨٩١ . ففي الثامنة عشرة اذا كان الفتى المجتهد يملك لغة العرب الصمية لدرجة تمكنه من قراءة ونقد نصوص قد تكون مستعصية حتى على اوفر المستشرقين خبرة ، بل كان يبرهن فوق ذلك عن معلومات لغوية وتاريخية وعلمية كثيرة ، وعن تملّك الاسلوب ، وعن بصيرة حادة في النقد . وهي ميزات انالته في العلم منصباً لا يقل رفعة عن منصب اي عالم متقدم في السن .

١) توجب عليه ان يتعلّم ايضاً ، على يد بيتزي ، اللغة الفارسية ، وتمكّن منها جيداً . وظهرت معرفته لها في محاولة نظمها ، وهو شاب ، يبحث فيها عن رواية مزلية فارسية حديثة . غير ان نلّينو لم يندفع طوعاً الى العلوم الفارسية والتركية .

٢) انظر الترجمة المملوءة عاطفة في مجلة الدروس الشرقية المجلد التاسع ص ٢٢٣–٢٢٤ *Rivista degli studi orientali*, IX, 232-234 وفي دائرة المعارف الايطالية المجلد ٢٧ ص ٤٦٦–٤٦٧ *Enciclopedia Italiana*, XXVII, 466-467 وفي خاتمة الخطاب عن الفردوسي التي تشير اليه بعاطفة الحب .

٣) عاش من ١٨٥١ الى ١٩١٧ وكان استاذاً في التعليم الحرّ في جامعتي توريتو وروما .

٤) تحت عنوان : القيمة القياسية لدرجة خط الطول حسب الجغرافيين العرب . ابحاث ودروس لكارلو الفونسو نلّينو . *Il valore metrico del grado di meridiano secondo i geografi arabi. Ricerche e studi* di C. A. N.

الابحاث الرياضية والفلكية

وقد يبدو ان محاولة نلّينو الاولى كانت تعدّه للتخصص في الابحاث عن جغرافية العرب الرياضية ، وعن علم الفلك القريب منها . وفعلًا قد كرّس لهذا الفرع من الدروس ، عدا الابحاث المختلفة المنشورة في الكوسموس ، خمسة كتب نشرها بين الثانية والعشرين والرابعة والعشرين . اما الثالث منها على الاخص فيحتوي على ترجمة ضخمة في خمسين صفحة بالقطع الربعي في غاية الاهمية لما يخص تاريخ الجغرافية العربية ، لانه ينشر للمرة الاولى نصاً قديماً غير مطبوع . هو تأليف ثان اكثر منه ترجمة لجغرافية بطليموس . ومنه اقتبست كل التآليف الجغرافية العربية . ومعلوماته في الرياضيات حثّ الاخوين شِپرلي (Schiaparelli)[1] الى ان يطلبا منه سنة ١٨٩٤ ان يأخذ على عاتقه هذا العمل الشاق في نشر وترجمة وشرح النص العربي « لمقدّمة علم الفلك » للبتّاني ، احد مؤسسي هذا العلم عند العرب ، الذي عاش بين القرن التاسع والقرن العاشر في عصر ازدهار التمدن والعلم في العالم الاسلامي . ولم يكن هذا المؤلّف من اهم ينابيع علم الفلك العربي فيما بعد فحسب ، بل كان الكتاب الذي اكثر من قراءته ودرسه الغرب المسيحي حتى عصر النهضة وبعده ، بواسطة تراجم لاتينية . ولم يطوه النسيان الا بعد ظهور علم جديد للفلك لا ينتمي الى بطليموس .[2]

وبالرغم من ان نلّينو لم يفتكر قط بتخصيص نشاطه بعمل من هذا النوع — وهو ما كان يذكره بنفسه في بعض الاحاديث الخصوصية وما يشير اليه في آخر

---

١) يوحنا (١٨٣٥–١٩١٠) وهو الفلكي الماهر مدير مرصد بريرا (Brera) في ميلانو الذي تُكوّن تآليف نلّينو جزءًا من منشوراته ؛ وشلستينو (Celestino) (١٨٤١–١٩١٩) . وهو المستشرق العظيم ، تلميذ اماري (Amari) الجليل ، واستاذ اللغة والادب العربية في جامعة روما . وكان نلّينو مخلصاً له شديد الاخلاص فكتب ترجمة لحياته مطولة .

٢) كتب نلّينو عن البتّاني وعن تآليفه بعضَ معلومات قصيرة جامعة ، تختصر النتائج المفصلة في مؤلّفه الاكبر ، في دائرة معارف الاسلام (النشرة الافرنسية) المجلد الاول ص ٦٦٨–٦٦٩ *Enciclopedia dell'Islam* I, 698-699 وفي دائرة المعارف الايطالية (انظر « البتانيو ») *Enciclopedia Italiana*, (s. v. Albatenio),II, 135. المجلد الثاني ص ١٣٥

مقدمة المؤلف — فانه لم يتردّد في قبول هذه المهمة التي لم يخفَ عليه عبؤها الثقيل . فسافر حالًا في خريف سنة ١٨٩٤ الى اسبانية ليقوم بنسخ المخطوطة الوحيدة المعروفة المحفوظة في مكتبة الاسكوريال . وفي السنة التالية انتقل الى نابولي لوظيفة جديدة سنتكلم عنها بعد قليل ، فتبع في الجامعة دروس علم الفلك والحساب في الكلية الصغرى ، ليتمكن من خوض المشاكل الصعبة التي سوف تعترضه في نصّ البتّاني ، ولا سيما في جداول مواقع السيارات والنجوم التي تكوّن القسم الاكبر من هذا النص . وفي الوقت نفسه باشر درس علم الفلك العربي ، والتعمق فيه مستندًا الى تآليف لا تحصى اكثرها غير منشور ، ومتفحصًا ، فوق ذلك ، عشرات التراجم اللاتينية من القرون الوسطى التي فُقدت نصوصها العربية ، راجعًا الى الينابيع اليونانية واللاتينية والايرانية والهندية التي جرت منها المبادئ الفلكية العربية . فكانت ثمرة هذه الابحاث الواسعة العميقة مجلدات ثلاثة مجموع صفحاتها ١١٣١ بالقطع الربعي . اول ما نشر منها المجلد الثالث الحاوي النص العربي ، ثم تبعه الاول وفيه الترجمة اللاتينية مع الحواشي ومقدمة طويلة تاريخية ادبية . واخيرًا ظهر الثاني وهو يحتوي على ترجمة الجداول مذيّلة بالحواشي ، وعلى شرح قيّم للالفاظ العربية الخاصة بعلم الفلك تلك التي تجهلها المعاجم ، ولا تستوفي شرحها ، وعلى فهارس مطوّلة لكل المؤلف .

فهذه المأثرة العظيمة التي خرج منها علم الفلك العربي جديدًا نقيًا نالت نلّينو شهرة عالية قلّدته المنصب الاول ، بلا منازع ، في كل ما يختص بتاريخ علوم العرب الفلكية والتنجيمية والرياضية . وزادته شهرةً مساعدةُ القيّمة للعالم السويسري هنريخ سوتر (Heinrich.Suter) في تأليف كتابه عن حياة وآثار علماء العرب الرياضيين والفلكيين[1] بارساله له وسائل خصوصية تضمنت التصحيحات والاضافات الوافرة ، حتى كادت تملأ كراسًا من الذيول بكامله رأى سوتر

(١) *Die Mathematiker und Astronomen der Araber und ihre Werke*, Leipzig, 1900 [*Abhandlungen zur Geschichte der mathematischen Wissenschaften*, X].

نشره مناسباً[1]. وعُرف نلّينو، مدة سنوات عديدة، كصاحب الحجة القاطعة في هذا الفرع من العلوم العربية. واليه التجأت ادارة دائرة المعارف الاسلامية المنشورة في هولندة لتحرير ابواب التنجيم والفلك ومقياس بعض الكواكب وحركتها. وعهدت اليه ايضاً دائرة معارف الدين والاخلاق المنشورة في انكلترة في تحرير مقال طويل جامع عن التنجيم العربي نشر بعد مدة طويلة وبايجاز كلي عن النص الاصلي[2]. ولمّا دُعي نلّينو سنة ١٩٠٩ الى القاء دروس عربية في الجامعة المصرية، في القاهرة، حيث كان قد درّس اغناطيوس غويدي[3] قبل ذلك بسنة، ارادت الادارة ان يختص الدرس بتاريخ علم الفلك العربي في الاجيال المتوسطة. فجاء هذا الدرس الذي اعدّه نلّينو وكتبه بمزيد الاعتناء والتدقيق كتاباً هو افضل ما ظهر في هذا الموضوع المهم والصعب معاً. وهو كتاب ثمين بمعنى الكلمة المزدوج لان نسخاته الموضوعة لدى الجامعة المصرية فُقدت لسوء الحظ، او يظهر انها فُقدت. ونحن نتمنى ان ينقل هذا الكتاب الى الايطالية ليكون ايضاً في متناول مؤرخي العلوم غير المستعربين. وبعدئذٍ اهتم نلّينو اهتماماً متقطعاً بتاريخ علوم الفلك والتنجيم والرياضيات عند العرب ووضع كتاباً وجيزاً جوهرياً خطّ فيه الطريق لابحاث تناولت ناحية خاصة من مشكل لم يزل غامضاً الى اليوم، وفي حلّه اهمية رئيسية لفهم تكوين الحضارة الاسلامية: الا وهو مشكل

---

(١) *Nachtraege und Berichtigungen*, Leipzig 1902, (ibid. XIV).

اما لائحة الكتب الآنفة الذكر فتلزم الصمت التام عن هذه المساعدة ولا شك لان اسم نلّينو لم يذكر في العنوان. ومع ذلك فهي من اكبر مآثر نلّينو في تاريخ العلوم العربية القياسية.

(٢) ان النص الاصلي لهذا المقال يستحق النشر دون ان يحذف منه شيء (ونتمنى ان يكون هذا سريعاً) فيصبح احسن مقدمة لدرس التنجيم الاسلامي الذي يفتقر حتى اليوم الى امداد عصري. والحال ان شبه العلم هذا يستحق ان يكون معروفاً، لا لمحتوياته فحسب، بل لأنه مشتق من التنجيم اليوناني المدرسي (وقد حفظ احياناً لهذا التنجيم اليوناني بعض كتابات واجزاء فُقد نصها الاصلي)، ولان منه نبع التنجيم اللاتيني واليوناني في الاجيال المتوسطة اللذان حفظا بدورهما تراجم لمؤلفات عربية مفقودة او غير مكتشفة حتى اليوم.

(٣) انظر «الشرق المصري» المجلد الخامس عشر ١٩٣٥ ص ٢٣٦ – ٢٤٨ *Oriente Moderno* XV, 1935, pp. 236-248؛ والمشرق ٣٣ [١٩٣٥] ٤٤٠-٤٤١

تأثير الحضارة الفارسية الساسانية في تكوين تلك الحضارة. وكرّس نلّينو للجغرافية العربية بعض محاولات اخرى مهمة على ان احداها تُبرز مظهراً جديداً لنشاطه العلمي يختلف كل الاختلاف عما قبل ، وسنتكلم عنه فيما بعد.

الابحاث اللغوية والتاريخية

وقد يظنّ البعض بكل سهولة ان هذا الانتاج الغزير الهام للغاية يستوعب القسط الاوفر ، ان لم يكن كله ، من نشاط يبذله باحث فرد . غير انه لم يستوعب الا جزءاً زهيداً من نشاط نلّينو : وقد برهن ، منذ الابتداء ، على تضلعه من فروع اخرى في الدروس العربية والاسلامية ، مختلفة كل الاختلاف ، وبعيدة كل البعد ، عن الجغرافية والعلوم القياسية . فظهر كتيب بحجم صغير سنة ١٨٩٢ لا يحتوي في الحقيقة نتيجة ابحاث شخصية ، بيد انه عجيب لما فيه من المعلومات الوافرة الواسعة والآراء السديدة الناضجة . وكان لا يزال طالباً لما وضع اشهر سور القرآن على ترتيب تاريخي ، حسب نتائج ابحاث نولدكه ، واضاف اليها حواشي وممجماً لاستعمال طلاب العربية تخص فيها نتائج احدث الابحاث عن اصل القرآن وفقه اللغة العربية ، دون ان تفوته المقابلة مع لغات سامية اخرى . فجاء هذا البحث الصغير في غاية المناسبة والمنفعة . فنفد بدة قصيرة ، وطلب الناشر مراراً من نلّينو ان يهتم بطبعته الثانية . ولكن الوقت لم يتوافر لديه لتحضيرها .

وبعد هذا باثل من سنة ظهر مقال درس فيه بدقة عجيبة المسائل التاريخية والاجتماعية المتعلقة بنظام القبائل عند العرب البدو الاقدمين . وهنا ايضاً يثير الدهشة نضج القريحة وسداد الرأي ، فلا يعتقد المطالع ان المؤلف لم يتجاوز العشرين من سنه الا من مدة وجيزة . وفي هذه المحاولة التي كتبها ، وهو شاب ، تتبسط تماماً احدى صفات نلّينو الخاصة : الا وهي ادراك واقعية الحوادث التاريخية ادراكاً جعله يحترز دائماً من التركيبات الخيالية ولو كانت فتّانة . ويتجنب في تآليفه التالية كلها الجمل الموضوعة الخاممة . وكان هذا المقال عن نظام قبائل العرب قليل الانتشار بين المستعربين ، وقد يعود السبب في ذلك الى نوع المجلة التي ظهر فيها ، فاخرجه من النسيان الاب هنري لامنس المؤرخ الكبير للبلاد

العربية القديمة الذي اظهر ، بعد مضي عشرين سنة ، انه في متناول جميع الاجيال[1].

ان مزايا هـذا المستشرق الشاب ، الذي كان عند حصوله على شهادة الدكتوراه يملك متاعاً علمياً وافراً لم تُعدم التقدير الرسمي حتى في حين كان فيه اهتمام الحكومة بالدروس الشرقية اقلّ منه فيما بعد . واذ منحته وزارة المعارف العامة منحة مدرسية ، اقام في القاهرة من كانون الاول ١٨٩٣ الى ايار ١٨٩٤. وهو على استعداد للانتفاع ، ما امكنه ، من الاحتكاك المباشر بالعالم العربي. وكان دائماً مفتوح البصيرة للتنقيب الثاقب ، فجمع جماً وافراً من المعلومات التي جاءت في اساس خبرته بالعقلية العربية ، تلك الخبرة التامة التي كان مزمعاً ان يزيدها في المستقبل سمة ودقة باقامته طويلاً ومراراً عديدة في الشرق ، ولا سيما في مصر ، وبحثه على الاهتمام بالاسلام المعاصر في مظاهره المختلفة الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية . وقد وقف لهـا فيما بعد قسطاً وافراً من نشاطه .

ولم تظهر ثمرة مباشرة لهذه الرحلة الاولى الى مصر الّا بعد مضي بضع سنوات . غير انها جاءت في غاية الاتقان . فكتاب « العربية المتداولة في مصر » (*L'arabo parlato in Egitto*) هو حقاً افضل كتاب تناول لـاناً عربياً حياً ، يرضي باعتدال مواده ، وحسن توزيعها ، القوانين العلمية والعملية التي واتاها حفظاً لسمة المجموعة التي ظهر فيها . ولم يكن نلّينو لغوياً بحصر المعنى ، فلم يبحث طويلاً في الامور اللغوية المحضة[2] ؛ بيد انه اظهر في تأليف الكتاب سمة الاطّلاع ودقة التنقيب وهذه هي ميزة جميع مؤلفاته . وبعد ان ايقظ فتح ليبية اهتمام ايطالية بالعالم العربي ، ظهرت الطبعة الثانية مزاداً عليها ومنقحة بكل تأنٍّ ، حسب علم الالسنية العربية الذي كان قد احرز درسه في هذه الفترة تقدماً محسوساً . واثبت نلّينو في فرص متعددة انه ظل متتبعاً حركة هذا الفرع الثاني في نظره ، من الدروس الشرقية .

---

١) H. Lammens, *Le Berceau de l'Islam*, Rome, 1914, p. 206

٢) ولكنه قبل نشر هذا الكتاب كان قد كتب ملاحظات نقدية واصلاحات قيمة لقراطيق اللسان التونسي من تأليف ستوم (Stumme).

الاستاذ في نابولي وفي پليرمو

بعد رجوعه من مصر، ورحلته الوجيزة الى اسبانية، تُقلد نلّينو، في شهر تشرين الثاني من سنة ١٨٩٤، ادارة منبر العربية في المعهد الشرقي في نابولي، حيث اقام الى آخر سنة ١٩٠٢، واصبح في السنوات الثلاث الاخيرة استاذًا فوق العادة. فهذا المنصب الرفيع بالنسبة لصغر سنّ من تقلّده، كان مع ذلك متوسطاً لزهادة المرتب، ولعدم تسهيل الدرس، وايضاً لسوء النظام الذي كان المعهد ينحطّ اليه في ذاك الحين. بيد ان الاستاذ كان مجتهدًا اجتهاده العادي المتواصل في القيام بواجباته التعليمية، دون ان يهمل متابعة نشاطه العلمي وتوسيعه على نمط منتظم يمتد الى حقول تزداد تنوعاً ورحابة، بالرغم من استغراق القسط الاوفر منه في اعداد درس البتّاني.

وفي السنة ١٩٠٠ نشر نلّينو جدولًا للمخطوطات العربية، والسريانية، والفارسية، والتركية، في المكتبة الوطنية، ومكتبة المحفل العلمي في تورينو. ولهاتين المجموعتين[1] اهمية كبرى، ان لم تكن رئيسية، ولا سيما في ما خصّ مخطوطات الاولى الفارسية. غير ان وصف نلّينو لها يفوق كثيرًا اهمية المواد ويؤدي مساعدة جزيلة لتاريخ الآداب ولمعرفة التصانيف. وفيها التدقيق والكمال وسعة العلم الشاملة. وهي حسنات يصبح وجودها عادياً من الآن فصاعدًا. ولم تسنح لنلّينو، فيما بعد، الا فرص نادرة ليهتم بالمخطوطات ومع ذلك لم تقل ابدًا خبرته في هذا الفرع من الدروس الاسلامية.

وفي سنة ١٩٠٢ اهتمت الحكومة الايطالية بمنبر پليرمو العربي، الذي كان شاغرًا منذ سنوات عديدة، فدعي اليه نلّينو بعد فوزه في المباراة. وبقي هناك حتى السنة ١٩١٣ استاذًا فوق العادة اولًا، ثم عاديًا بعد السنة ١٩٠٥. وتوافر

---

١) كادت الاولى، وهي اكبر من الاخرى، تتلف بكاملها لسوء الحظ في حريق حصل في ٢٩ كانون الثاني ١٩٠٤. انظر إ. پيتري في اعمال محفل تورينو العلمي، المجلد ٣٩ [١٩٠٣–١٩٠٤] ١٠٦٧ – ١٠٦٩ *Atti dell'Accademia delle Scienze di Torino*, XXXIX, 1903-1904, p. 1067-1069

في هذه السنوات العمل والدرس الواسع الدقيق في كل فرع من حقول الاسلام التي لا حدّ لها. ومع انه اتم الابحاث التي كان ابتدأ بها ، ونشر محاولات اخرى وجيزة ، الّا انه لم يأخذ بتأليف عظيم ضخم ؛ وقد يُظنّ انه كان لا يزال يشعر بالحاجة الماسة للدرس ، لا لغاية ما سوى ان يتعلم ، وانه لم يعتبر استعداده كافياً ، وان كان عظيماً ، لمعرفة العالم العربي القديم والحديث تلك المعرفة التامة التي وعد النفس بالحصول عليها ، والتي لم يبلغ مبلغه منها اي مستشرق معاصر.

ولا يستطيع ان يدرك مقدار مطالعته ودرسه وشروحه ، اثناء اقامته في پليرمو ، الا من كان يحظى بالتردّد الى زيارته ، فيتبع توسّع مكتبته العجيبة التي تكوّنت زويداً زويداً ، في هذه السنوات ، وما زالت تزداد غنى وحسن ترتيب بفضل تضحيات مالية كبرى حتى اصبحت اليوم من انفس المجموعات الخاصة للكتب الباحثة في الشرق ، ولاسيما للمطبوعات الشرقية . ويبدو مظهر الكمال الذي احرزه تضلعه التام من العربية على النشرتين الكتبيتين من المنشورات العربية للسنوات ١٩٠٦—١٩٠٨ اللتين ظهرتا في المجلّدين الاولين من مجلة الدروس الشرقية[1] . ولا يدور الكلام هنا عن جدول بسيط للكتب والمقالات بل عن الانتخاب والترتيب والبسط النقدي لمواد كثيرة التنوع ، وكل ذلك بمعرفة تامة للتآليف العديدة التي جرى البحث عليها .

ولم يتمكن نلّينو من تخصيص كل الوقت الذي قضاه في پليرمو بالدرس الهادئ المنتظم . فاضطر اضطراراً نافياً الى الاقلاع عنه ، خصوصاً بسبب رحلاته الى افريقية الاسلامية . فمنذ السنة ١٩٠٥ اشترك في المؤتمر الدولي للمستشرقين المجتمع في الجزائر ، فانتهز هذه الفرصة ليزور اهم المدن الجزائرية ، ثم ليتقدم الى جهة غير معروفة تمام المعرفة ، على حدود مراكش ، قاطعاً مسافة شاسعة في الصحراء على ظهر الجمل[2].

---

١) التي اسسها سنة ١٩٠٧ اساتذة المدرسة الشرقية في جامعة رومة باقدام وهمة انغاطيوس غويدي بنوع خاص.

٢) ان الاستاذ شبرلي اراني خيراً مخطوطاً عن هذه الرحلة قدّمه نلّينو في جملة الوثائق لترقيته الى درجة استاذ عادي ، مرفوقاً برسم طوبوغرافي للطريق التي سار عليها ، ومكتوباً

الاستاذ في الجامعة المصرية

في السنة ١٩٠٩ دعته الجامعة المصرية ، كما مرّ ، الى القاء درس عربي في القاهرة حول تاريخ علم الفلك العربي. وكان من حسن نجاحه ان الدعوة تجدّدت في السنتين ١٩١٠—١٩١١ و ١٩١١—١٩١٢ . بيد ان الدرس تناول في هاتين الدورتين تاريخ الآداب العربية . فجاء هذا العمل في غاية الصعوبة لان هذه المادة زاولها حتى العلماء المصريون ، ولو مع نقص في طريقة النقد ، فاصبح المستشرق الاوربي غير البصير الذي يتجاسر وينافسهم يعرّض نفسه للوهم وتهكمهم . اما نلّينو فلم يخرج ظافرًا من هذا المأزق الحرج فحسب ، (اذ كانت عربيته معصومة من الغلط في اللفظ والانشاء) ، بل اكتسب في الاوساط الادبية المصرية شهرة لا نزاع فيها جعلته معتبرًا كاستاذ في كل مكان ، ومكّنته من التأثير تأثيرًا حسنًا على التقدم العجيب حقًا ، الذي احرزته بين العرب ، الدروس اللغوية في الربع الاخير من القرن . ومن تلاميذه الدكتور طه حسين (وقد كان ايضاً تلميذ غويدي) زعيم المذهب المصري الحديث في درس التاريخ والادب ، والذي اعترف جهرًا اكثر من مرة بفضل نلّينو على نضجه الروحي .

في مهمّات رسمية

وبعد فتح ليبية ، نشأت من الوضع الجديد مشاكل ادارية ثقافية تتطلب رجالًا خبيرين بالعالم الاسلامي . فسرعان ما التفت الحكومة على عاتق نلّينو مهمات ثقيلة دقيقة : فرافق وزير المستعمرات في زيارته الاولى للاراضي الايطالية الجديدة ، واشرف على اعادة تنظيم خزانة الاوراق السياسية العثمانية ، ومكتب الترجمة . ثم ارسل بصفة مفوّض ملكي لاعادة تنظيم معهد نابولي الشرقي من ايلول ١٩١٣ الى شباط ١٩١٤[1] .

خط جلي موافق تقريباً لقوانين علم الخط . وقد حافظ نلّينو على تلاوة هذا الخط منذ السنوات الاولى من حداثته حتى النهاية ؛ وهذا دليل طفيف ، ولكن بليغ ، لثبات طبعه وتوازنه .

١) في اثناء قيامه بهذه المهمة داهمته داهية اليمة بفقد زوجته المحبوبة ، وهو بعيد عنها .

وقد نشر في هذه الاثناء « قواعد » النقل الرسمي للالفاظ العربية ، ولاسيما الجغرافية ، وبحثاً عن الخلافة نقل الى الافرنسية والانكليزية .

ولا نستطيع السكوت عن عمل آخر اهتمّ به اثناء اقامته في پليرمو ، واشترك بـه اشتراكاً افضل مما يظهر لاول وهلة : وهو تجهيز مجلدين ضخمين احتويا على مذكرات لعدة كتبة تتعلق بعقلية ، ولاسيما الاسلامية ، وبايطالية الجنوبية في الاجيال المتوسطة الاولى ، وبتاريخ المدنية الاسلامية عامة . ونشرا تحت عنوان « التذكار المئوي لمولد ميكاله أماري »[1] . وكانت حصة نلّينو فيهما كتابة بحث قيّم عن مؤرخ مغربي متأخر ، ولاسيما تنقيح ابحاث القسم العربي الاسلامي ، ووضع فهرس لاسماء الاعلام العربية ، وقاموس للالفاظ النادرة . وقد ظهرا مثالين في نوعهما . وفي الاول منهما حلّ موفق لبعض المشاكل العسرة المختصة باسماء الاعلام .

في جامعة رومة

وقد المحت الى انتقاله الى رومة . وكان هذا نتيجة فتح ليبية . فلما تقرّر اعطاء الدروس الاسلامية في المدارس العليا حصة اوفر ، أنشئ في جامعة رومة ، بالقرب من منبر اللغة والآداب العربية ، الذي كان يملؤه شَبَرّلي بكل جدارة منذ السنة ١٨٧٥ ، منبر للتاريخ والاوضاع الاسلامية دعي اليه نلّينو في خريف ١٩١٣ ، بناء على اصر ما لبث ان تحوّل الى نقل رسمي في اول كانون الثاني ١٩١٥[2] . فهذا التغيير في المسكن ، وفي لقب التعليم يبدأ عهداً اساسياً في حياة نلّينو العلمية . وبما انه كان دائماً دقيق الشعور بواجباته ، رأى ان ينشر كتابات

(كانت ابنة العالم الاقتصادي والاجتماعي الشهير س . كونياتي دي مارتيس S. Cognetti de Martiis الاستاذ في جامعة تورينو) وقد اقترن بها سنة ١٩٠٦ . وفي رسالة لي بعثه الثانية يظهر ، خلال الالم الشديد الظاهر حتى في الصيغة الوجيزة المتحفظة الخاصة به ، عزمه الشديد على العودة باسرع ما يمكن الى المهمة التي يدعوه اليها الواجب .

١) *Centenario della nascita di Michele Amari*, Palermo, 1910

٢) وفي الوقت نفسه أنشئ في المعهد الشرعي منبر الحق الاسلامي ، وكُلّف به داود سانتيلّانا (انظر عنه مجلة الدروس الشرقية المجلد ١٦ ص ٤٥٢–٤٦١ ، *Rivista degli studi orientali*, XIV, 453-461).

جديدة تتفق تمام الاتفاق مع المادة التي يدرّسها ، والتي كان عادة يستمدّ لالقاء هذا الدرس فيها باعتناء عظيم. وفي الوقت نفسه تنازل له غويدي سريعاً عن ادارة مجلة الدروس الشرقية (*Rivista degli studi orientali*) فدارم على معاونة هذه المجلة. وكرّس للدين الاسلامي معظم التصانيف المنشورة بين ١٩١٥ و١٩٢٠ وكان هذا الموضوع اكثر ما تناوله في امثولاته . وهنا ايضاً نلمس هذا الاتفاق العجيب وهو ان انتاج نلّينو كان دائماً انتاج « فرصة ناهزة » . ولم يتقيد نلّينو بارادته الحرة موضوعاً للبحث يتوسع فيه رويداً رويداً من المعلومات الكثيرة التي كدّسها طول حياته كلها ، بل كانت الحاجات الخارجية ، او امر باطني ، تقدمه له واحداً تلو الآخر. وقد يُشبه حارساً اميناً لكنوز عديدة لا يتكرم بها كرماً جزيلاً الا عند الطلب ، مبيّناً بعمله هذا ان المستودع الذي كان يستمدّ منه ذو غنى لا ينفد . وقد سبق لنا ان اشرنا الى الناحية اللاهوتية في سلسلة ابحاث نشرت في المجلدين السابع والثامن من المجلة شرح فيها بكل مهارة مشاكل تتعلق فوق كل شيء بنشأة الفكرة اللاهوتية الاسلامية وتطوراتها الاولى المتتابعة ؛ وعاد في بعض الابحاث الى المسائل الفلكية. وفي هذين المجلدين ، ولا سيما في الثامن ، عدد عديد من المعلومات عن مؤلفات في التاريخ وتاريخ الدين وتاريخ العلم يكوّن الكثير منها وصفاً اختصاصياً مبتكراً لما فيه من ذيل واسع للمواد واقتراح الافكار الجديدة. ويوجد كتاب آخر مظهره الخارجي مظهر كتب الوصف الفه بمناسبة ترجمة دي ماتّو (Di Matteo) لقصيدة ابن الفارض في التصوّف ؛ اما الكتاب الذي تبعه فهو ردّ على ردّ دي ماتو . واما قيمة هذا الوصف وهذا الرد ، نظراً لحجمها وفحواهما ، فكلها في درس نشأة التصوّف الاسلامي وميزاته درساً متقناً ينمّ عن تملّك عجيب للموضوع وعن معرفة تامة لمذاهب التصوف في الفلسفة الافلاطونية الجديدة والفلسفة المسيحية ، وعن فهم الاحوال النفسانية الدينية التي يحسب مراراً تناول اشكالها العديدة ووضعها ضمن لوائح منطقية .

لم يكن نلّينو حتى الآن خصّص عملاً مبتكراً بمجمله من الدروس الاسلامية

يهتم به عادة المتخصصون في العلوم الشرعية ، الا وهو علم الحقوق . اما البحث الوجيز المنشور سنة ١٩٠٤ فيتناول الحياة والآثار اكثر منه فحص المذاهب . ولكننا نتيقن ان نلّينو لم يجهل كل الجهل هذا العلم الواسع بل ساعد مترجمَي مختصر الخليل الشهيرين ومترجم كتاب جوينبُلّ (Juynboll) ؛ بيد اننا لا نلمس بعد تلك العتيدة ، وتلك الروح ، الشرعيتين الفنيتين اللتين يوضحهما تأليف جدلي طويل (في ١٢٨ ص. كبيرة بالقطع الثماني) فرضته عليه ، كما يؤكد بنفسه ، واجبات مهنته كمدير المدرسة الشرقية في جامعة رومة ، خلافاً لتريدي المحال على التقاعد لبلوغه السنّ المحدودة . وكانت تحثّه على العمل الرغبة في دحض الخصم دحضاً نهائياً ، واكثر منها ظمأ شديد الى الكمال والدقة . فخرج للمرة الاولى في حياته عن حقل الدروس العربية الاسلامية . وبما ان الجدال كان يدور معظمه حول موضوع يقال له « الحقّ السرياني » ويتناول مسألة وجود حق شرقي عام ، عاد نلّينو الى درس السريانية التي كان قد اهملها من بضع سنوات ، وغاص في مطالعة الكتب الشرعية للكنائس المسيحية الشرقية ، وملك تماماً ناصية تاريخ الحق الروماني والبيزنطي وقوانينه . وكانت نتيجة هذه النيرة سلسلة ابحاث خاصة (لو جُمعت لكوّنت مجلدين ضخمين) افاضت نوراً جديداً على مشكل طالما اتعب عبثاً منذ سنوات عديدة مَن كانت مهنتهم درس الحقوق الشرقية . فاثبت نلّينو في جملة ما اثبته ، ان لا وجود للحق السرياني المزعوم ، وان لهذا المؤلف الشهير « كتاب سرياني للحق الروماني » نشأة متأخرة ومزية مدرسية محضة ، فضلاً عن كونه مجموعة مُختب ، وان للحقوق المسيحية الشرقية (طبعاً في القسم الغير الديني فقط) علاقة تامة بالحق الاسلامي . واثارت ابحاث نلّينو هذه في الحقوق الشرقية ليس اعجاب المستشرقين فقط بل ايضاً اعجاب الفقهاء . وكان احد مشاهيرهم ، وهو العالم الكبير في الحق الروماني ، بطرس بونفانته (Pietro Bonfante) قد خاصمه اولاً ، ثم اقتنع ببراهينه المنتظمة المتينة اقتناعاً تاماً جعله من اكثر مادحيه اعجاباً .

واتفقت ان سنحت فرصة اخرى لظهور بحثين لنلينو عن الفلسفة العربية ليسا ، على ما اعلم ، الا جزءا طفيفاً من المعلومات الضافية التي كدّسها .

يبحث الاول منهما بحثاً خاصاً جداً قاده بنبحره المادي الدقيق النافذ عن لفظة «كولكوديا» (Colcodea) الغريبة التي يدّعي توما كمبانلّا (Tommaso Campanella) انها مرادفة للعقل الفعّال عند ابن سينا ، وتوصّل نلّينو الى اكتشاف اصلها . اما الثاني فهو اساس لفهم موقف ابن سينا الفلسفي ، ولفهم كل الفلسفة العربية عموماً ، المترددة بين تجديد الفكر اليوناني وتنظيم اساليب خاص يستمدّ من معلومات الحديث الديني ، النامية بتوسّع الفكر اللاهوتي . وفي اوصاف اخرى عديدة طويلة[1] افاض نلّينو نوراً جديداً على الفكر الفلسفي العربي وعلى علاقاته بالفلسفة المدرسية المسيحية .

٥

ونتج ايضاً عن فرصة اخرى ، او بالاحرى عن القيام بواجب المحبة والاكرام ، هذا الاهتمام المتواصل الذي بذله في الطبعة الثانية لكتاب « تاريخ مسلمي صقلية » لميخائيل اماري (Michele Amari, *Storia dei Musulmani di Sicilia*) وقد كان على وشك الانتهاء منها ، لما صرعته المنون فجأةً . وبالغ التدقيق في تحويل النسخ القديم للاسماء والالفاظ العربية ، الى نسخ جديد يتفق والقواعد العلمية التي طبقها أماري بعدئذٍ . وفي نقل المآخذ من النشرات القديمة ، او من المخطوطات ، الى مآخذ من نشرات حديثة او جديدة ؛ وفي ردّ اضافات أماري الى محلها الحقيقي . وفي هذا العمل وحده ما فيه من مشقة عديدة النشر تحملها نلّينو الى النهاية بثابرته العادية القويّة . غير ان فضله زاد ، لا لانه اضاف بيانات كتبية وايضاحات وتصحيحات صغيرة فقط ، بل لانه اوضح مشاكل واقعية في التاريخ الخاص والعام ظلّ اماري متردّداً في حلّها ، او حلّها حلاً ما لبث ان غيّره تقدم الدروس .

من هذه الابحاث المبتكرة ظهر كتاب آخر صغير مهم فيما يختصّ بفقه اللغة العربية ، وبتاريخ التجارة الاوربية في الشرق في الاجيال الوسطى . ويتجاوز هنا عمل نلّينو الشخصي دورَ التنقيح الى دور المساعدة المبتكرة . ولم يكن احد

(1) (*Oriente Moderno*, VII, 517-525 ; XI, 114-116 ; *Rivista degli studi orientali*, XV, 383-389)

اكثر استعداداً منه لهذه المهمة لانه كان ، فضلاً عن ثقافته العربية العجيبة العامة ، قد درس رأساً تاريخ صقلية وايطالية العربيتين إما في تآليف صغيرة خاصة ، وإما ، وهو الافضل ، في تحضير المجلدين عن « تذكار اماري المئوي » بنوع ان هذا العمل ايضاً ، وهو في آخر اعماله ، يدخل ، بالرغم من وضاعة اشتراكه به ، في جملة اخص مظاهر نشاطه العلمي المتنوّع .

مركز نلّينو وشهرته

هذا الانتاج الغزير ، وهذه الابحاث المبتكرة المتنوعة ، انالت نلّينو شهرة عامة ومجداً رفيعاً لم يتطلّبهما قط ، ولم يتباهَ بهما ، بل قبلهما كتحريض على القيام بواجبات جديدة . فمنذ العقد الثاني من القرن ، ولا سيما بعد الحرب الكبرى ، اصبح مطلق السلطة في عالم المستشرقين الايطاليين لان غويدي ، البالغ سن الشيخوخة ، والمتحفظ من طبعه في الخروج عن دروسه الخاصة الشخصية ، تخلّى اختيارياً عن الصولجان لتميله الاحدث سناً ، حافظاً له اعتباراً وحباً عظيمين قدّرهما هذا باحترام المخلص العجيب . وقد عهدت اليه وزارة المستعمرات ووزارة الشؤون الخارجية في مهمات دقيقة . فكان كلما اتى روما احد ملوك الشرق الاسلامي ، او احد كبار رجاله السياسيين ، باتصاله بهم وتحديثه بالعربية الفصحى الخالصة ، وبمعرفته المدهشة لبلاد الضيوف ، يثير فيهم عاطفة الاعجاب العميق بالعلم الايطالي .

كان عضواً مراسلاً في مجمل المدارس الثانوية منذ السنة ١٩٠٩ ، وفي المجمل الوطني منذ السنة ١٩١٦ ، فاصبح سكرتير فئة ونائب رئيس ، وبصفته سكرتيراً وقف مدة سنوات عديدة على نشر الاعمال باعتناء يماثل اعتناء سلفه غويدي . وظلّ طويلاً ، كما مرّ ، مدير المدرسة الشرقية في جامعة روما ، ومدير مجلة الدروس الشرقية . وقد ترك بعدئذٍ هذه المهمة اخيره واخيراً لميكال انجلو غويدي (Michelangelo Guidi) . وانتُخب مراسلاً او عضواً في كل المجامع العلمية الايطالية تقريباً . ومن تاريخ ٢٩ اذار سنة ١٩٣٢ ، انتخب عضواً في الاكاديمية الايطالية .

ولم يُعهد اليه فقط بمهمات ذات علاقة بمعارفه الشرقية ، بل قام طويلاً ، وهو

استاذ في پليرمو ، بمهمة تدريس الشرع المدرسي . وكان كثير الخبرة في هذه المواضيع لما عيّنه جنتيله (Gentile) ، وزير المعارف العامة بعد ارتقاء الفاشستية ، عضواً في لجنة البحث عن جهود المعلمين في المدارس المتوسطة اولاً ، ثم في مجلس التعليم العالي ، وفي اللجنة الملحقة بهذا المجلس . وقام بهذه المهمة حتى السنة ١٩٢٨ بنفس الاعتناء والعدل والغيرة على مكانة العلم التي كان يجعلها في كل مشاريعه . وحتى في جلسات معهد الآداب كان ، اذا تكلم في الاحوال العصية — وهو قليل الكلام — يُصغى اليه بكل انتباه واحترام .

كان جنتيله زميله في پليرمو ، وفي رومة ، يعتبره كل الاعتبار ، فعيّنه في ادارة الفرع الشرقي من دائرة المعارف الايطالية ، التي بوشر نشرها سنة ١٩٢٩ ، وتمّت من مدة وجيزة . ولا لزوم لاعادة القول انه وضع ايضاً في هذه المهمة الشاقة اهتمام المدير الحكيم ، وانتباه المنقح الدقيق لاعمال الآخرين ، ولا سيما المساعدة الثمينة لابحاث عديدة منها الطويل ومنها القصير بلغت غايتها في مقالة «الاسلام»[1] بحث فيها الدين الاسلامي بحثاً واضحاً مفصّلاً . وكان احد الاصدقاء قد طلب منه بحثاً ، قبل هذا بسنوات عديدة ، تأليفاً اوسع في الموضوع فتملّص منه لشكه الزائد في كفاءته العلمية .

اما شهادات الاكرام التي اتته من الخارج فلا تقل عن هذه قيمة . منها انه انتُخب عضواً شرفياً في الجمعية الاسيوية الملكية (Royal Asiatic Society) في لندن (١٩٢٣) وفي (Deutsche Morgenlandische Gesellschaft) (١٩٣٤) . وهذه من انفس الجوائز في نظر المستشرقين . واستحق امجاداً اخرى اتته من مصر خاصة حيث كان اسمه معروفاً . فدُعي سنوياً من ١٩٢٧ الى ١٩٣١ لالقاء درس كل اربعة اشهر في الجامعة المصرية . وكان قد علّم فيها ، وهي معهد حرّ ، كما رأينا ، ولما اصبحت معهداً رسمياً لم تشأ ان تُحرم هذا الاستاذ الماهر[2] .

---

١) (المجلد ١٩ [١٩٣٢] ٦٠٢—٦١٠ ، وتوجد مقالات اخرى (اذكر مثلا « الخليفة » و « الصوفية ») شاملة مهمة تستحق النشر على حدة مع مقالة « الاسلام » .

٢) كانت الدروس التي القاها تدور حول تاريخ البلاد العربية في الجاهلية . وهذا

وكان منذ سنوات عديدة عضواً شرفياً في المعهد المصري، (Institut d'Egypte). ثم عُيّن عضواً في المجمع الملكي للغة العربية الذي تأسس سنة ١٩٣٣ ؛ وكان كل سنة يُقيم طويلاً في القاهرة (وكانت المرة الاخيرة في شتاء السنة ١٩٣٨ وربيعها) ليشترك في اعماله العائدة قبل كل شيء الى جمع وترتيب وتجديد التراث الواسع للالفاظ العربية. واذ كان عضواً في المجمع العربي الدمشقي سافر الى سورية والى بلاد ما بين النهرين سنة ١٩٣٤ ، فاقيم له استقبال لا يقلّ فخامة عن استقباله في الدولة السعودية ، عندما انتقل سنة ١٩٣٨ من مصر الى جدّة ومنها الى مدينة الطائف الجبلية في قلب الحجاز ، متفوّقاً بحيّة الشباب على مشقات المناخ والسفر .

نلّينو « والشرق العصري »

ارجأت الى الاخير هـذا القسم من حياة نلّينو العلمية الذي يتعلق تعلّقاً اوثق بمجلة « الشرق العصري » ، ويكوّن وحده عملاً جديراً بافضل الاعجاب. تأسس المعهد الشرقي سنة ١٩٢١ ، بهمة أميديو جيانيني (Amedeo Giannini) فانتخب نلّينو مديراً له ، وقرّر انشاء مجلة شهرية تبحث بنشر المقالات والاخبار الجديدة الضافية ، في سائر الامور السياسية والاقتصادية والثقافية المتعلقة بالشرق الاسلامي . فتهيأ نلّينو لهذا المشروع بتلك الرصانة العميقة وذاك الشعور الخالص بالمسؤولية الخاصين به. فلم يكتفِ بتنظيم المجلة وادارتها ، بل اراد ان يقف على تحريرها باعتنائه الدقيق. فكان يتبع يومياً تقريباً (ما خلا مدة غيابه عن ايطالية) عمل التحرير ، ويراجع المسودات بدقة عينيه وعقله العجيبة النافذة ، فلم يَفُتْه خطأ طائف في الاخبار ، ولا عثرة دقيقة في الطبع. وساهم في التحرير ليس بمقالات قيّمة (قليلة لسوء الحظ) وباوصاف كثيرة مهمة فقط بل بوضع الحواشي العديدة ، ولا سيما باضافات وتصحيحات لم يوقعها ، مغربلاً في غربال علمه الواسع ودقته

موضوع بُسط ، لا سيما فيما يختص بالرُقُم العربية الجنوبية ، بنظام خاص مستقل تقريباً عن العربية (الشمالية) المتبقية. ومع ذلك اصبح نلّينو استاذاً حتى في هذا الموضوع الشاقّ الكلي الغموض الى الآن. وان كانت ، لسوء الحظ ، منشوراته فيه نادرة.

المعصومة ، ونقده الثابت النافذ ، كل خبر وكل ملاحظة في الجغرافية ، والتاريخ ، والشرع ، والدين ، والثقافة ، والسياسة .

ان « الشرق المصري » كما هو وكما اراده واخرجه نلّينو بهمّة دامت ١٧ سنة ، لعمل فريد في نوعه يحقّ لايطالية الافتخار به . اما نلّينو فلم يجهل قيمة اعزّ تآليفه ، رغم تواضعه واجتنابه المديح . وبرهان ذلك الاهتمام الدائم الذي بذله له بكل عطف حتى يومه الاخير ، وقد صحّح المسودات الاخيرة لكرّاس تموز ١٩٣٨ في الرابع والعشرين منه ، اي عشية انتقاله من هذه الحياة الارضية .

قيمة اعماله

لا يصعب الجواب على من طالع هذا العرض السريع الوجيز لاعمال نلّينو فتساءل عن فحواها الوضعي وقيمتها الدائمة . ففي تاريخ علم الفلك العربي ، والحقوق الشرقية ، ترك نلّينو آثارًا لا تمحى . ولم يساهم احد مساهمته ، لا قبله ولا بعده ، في تقدم هذين الفرعين الهامين من تاريخ المدنية الشرقية . اما في سائر المواضيع المختلفة التي تناولها موجزة او مطولة في ابحاثه المشرة فله دون شك منافسون يضاهونه ، او يفوقونه ، في تقدم هذا الفرع من الدروس او ذاك . ولكن ، نظرًا لقيمة العمل ، لا نرى احدًا يسبقه وان خلّف بعضهم تآليف اكثر عددًا واوسع شمولًا . الّا ان التي نشرها نلّينو كانت كاملة في نوعها . والسمة النهائية التي طبعها لكل تأليف بمفرده تجعل من لا يقف على سائر منشوراته يعتقد ان المؤلّف لم يهتم طول حياته الباحثة ، الا بالجول في هذا الحقل الضيّق الذي يتكوّن منه موضوع هذا البحث المعيّن . واذا افتكرنا انه عمل باستقلال في مختلف حقول العلوم الاسلامية ، وانه نقّب في كلها بنفس الفوز ، تأخذنا الدهشة والاعجاب امام المجهود الفريد الذي استطاعت قريحته القيام به والمواظبة عليه .

ونظرًا لامتلاكه التام انواع المعرفة بجميع العالم الاسلامي ، منذ نشأته التي تنبثق غامضة من خلال غيوم العهد السابق للتاريخ الى مظاهره العصرية العديدة المتغيّرة ، قد يضارع نلّينو الجابرة منفردًا بين معاصريه وربما بين سلفائه .

وبما ان لكل عظمة حدّها ، يجدر بنا القول ان نلّينو افتقر الى الوقوف

على مظاهر الفنّ. فلم يهتمّ كثيراً بتاريخ الفنّ ولم يكتب فيه شيئاً، حتى ولم يحكم في جمال الشعر والنثر الفني، مع انه عرفهما حق المعرفة. ولدينا برهان على انه كان بمقدوره تذوّق الجمال في بعض التلميح الحيّي المختشي تقريباً المبثر في كتاباته. غير ان عبقريته كانت دون شك عقلية اكثر منها خيالية. وهذا ما نتلمسه من مطالعة كتاباته التأليفية، وهو يجب ان يعرض فيها، عرضاً كاملاً، الاصول التي تتألف منها الحوادث التاريخية والثقافية ويفضل تبيان العلاقات التي تربطها، على تلقين فهمها حالاً وتماماً بواسطة معلومات وجيزة سريعة تلقينية.

وبينما كانت تتكوّن شخصية نلّينو العلمية، تغيّر درس الاسلام تغيّراً اساسياً مع غيره من العلوم التاريخية. فعاد اهتمام دارسي الاسلام يدور — بعد ان كملت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر طريقة درس اللغة ونقد عهد انشائها — حول بحث المؤسسات والعلوم، واصبح العالم الاسلامي المعاصر للمرة الاولى موضوع البحث المرتّب. وتبع نلّينو الميل الجديد، مع ما وجدناه عنده من سعة المعارف وشمول الاهتمام، فساهم بنوع عجيب في تقدم درس الاسلام عموماً. ثم انشأ وترأس في ايطالية نزعة ترمي الى التأثير الفعّال، ليس في العلم المحض فقط، بل ايضاً في اتجاه النظر الى السياسة الشرقية. فبالكتابات، ومن على المنبر، وبواسطة المساعدات والمنشورات الخاصة، ولا سيما بالتعليم الدائم المنبثّ من اعمدة مجلة «الشرق العصري»، ثقّف فقيدنا وقوّم وقاد فريقاً من الشبان كان بعضهم باحثاً في امور العلم الصافي، والبعض الآخر، وهو الاكثر، موظفاً في سياسة الدولة. وبواسطتهم انتشرت نظريته الى ما وراء البحار ولا تزال منتشرة، وشاعت هذه الحقيقة التي كان دائماً يتعلب في اثباتها، الا وهي انه لا يستطيع احد افادة المصالح الوطنية في العالم الاسلامي، ان لم يكن حائزاً على معرفة ماضيه، ومنظماته، وحاجاته المادية والدينية معرفة دقيقة تامة.

ان كل عالم يحمل روح انسان: فصفاته البشرية، الصالحة منها والطالحة، تؤثر على عمل درسه وتظهر فيه. ومن اعمال نلّينو تظهر شخصيته القوية المستقيمة التي كانت تنعكس في شكله المرتبع، ووجهه العريض الدمث، وجبهته

الواسعة ، وعينيه المتناوبة فيهما حدة غريبة وجمود متحيّر . ومنّ الله عليه بملك النفس ملكاً خارق العادة . فكان يظهر انه يريد اخفاء صفاء روحه المذنب عن انظار العالم ، حتى كاد يصبح تحفّظه برودة ، وبالرغم من خلوص المحبة وسلامة الطوية النير المتصنعة في ترحيبه ، كان محدّثه يشعر مراراً بارتباك ووجل ، بل ربما كان هذا الوجل في قلب نلّينو ذاته الاكثر حرارة والاغنى عاطفة وحناناً مما يظنّه من اكتفى بالاقتراب من «الاستاذ» فقط . وفي وسط العائلة المحبوبة[1] ، في اثناء الراحة القليلة التي كان يسمح بها عمله الدائم ، كان يبدي انشراحاً صافياً خالصاً مظهراً روحه الطيبة .

ولم يكن ، وهو القاسي على نفسه ، بالقاضي المتساهل لعثرات الغير ، بل كان يحنق بنوع خاص على كل ما يشتم منه الكذب والغشّ ان في العلم وان في الحياة . غير انه لم يكن يقيم نفسه نقّاداً الا عندما تدعوه الى النضال واجبات مهنته وكرامته كباحث او مدني ، والدفاع عن حقوق الغير المهضومة . ففي مثل هذه المواقف كان ، وهو الهادئ المطمئن عادة ، ينتفض بكلامه ومظهره ، انتفاضاً شهماً عجيباً . وكما كان هذا الحنق يقوده حتى الغضب (وذلك بالحقيقة مرات قليلة جداً ومدة قصيرة جداً) ، فهكذا كان ، اذا دخل في جدال ما ، يضع فيه كل قوة مزاجه الحديدي المتين . بيد انه كان دائم الاستعداد لمساعدة من يلجأ اليه . وان كانت قلة مقدرته في الامتناع وحرارته في البلاغة ، وذاك الاكرام المتحفّظ لنظريته الصادقة اتاحته مباشرة تلامذة قليلين ، الا انهم كثيرون الذين حصلوا منه على آراء ومساعدات سنيت له غالباً ابحاثاً طويلة شاقة . وفوق ذلك فان حياته الدراسية بكمالها وقفها ، ان لم يكن على خدمة اشخاص منفردين ، فعلى خدمة الخير العام الذي جدّ في اثره بتضحية اذواقه الشخصية تضحية السكوت

---

١) عدا فقد امرأته قبل الاوان ، ابتُلي نلينو ابتلاء شاقاً بفقد ابنه الوحيد الذي انطفأ وهو يكاد يبلغ السابعة من عمره ، بعد مرض طويل اليم . واتذكر اني قرأت على وجهه ، لما تأكد له فتك المرض الذي كان ينفي شيئاً فشيئاً حياة ولده ، نمّاً ازداد قوّة كلما زاده قمّاً . واني احتفظ ببطاقة ارسلها لي بعد وقوع المصيبة بقليل ، تجلو في بضعة اسطر عن قرط حزنه العضال . غير انه لم ينضح منه الى المازج الا الشيء القليل او لا شيء ، ولم يتوقف سير اعماله المنظّم .

غير المتباهي. وفي الاحوال التي دعاه فيها الوطن للعمل ، ودائماً بنتيجة محسوسة ، برهن عن اتقان بلغ حدّ الشهامة تقريباً. فلخدمة الوطن والعلم زهد زهد الناسك بكل لهو عالمي ، وبكل تشتت فكري ، حتى وبالراحة ، مع شعوره بالحاجة اليها . ولا شك ان ما عجّل نهاية حياته هو الجهد الجهيد الذي فرضه على مزاج كان يحتاج منذ امد بعيد الى الراحة والعناية . فبعد ان رجع من رحلته الى جزيرة العرب ، تلك الرحلة التي اتعبته كثيراً ، عاد بحميّة الشباب الى شغل المكتب المضنك. وربّ صديق حثّه على السماح لنفسه باقامة قصيرة في المصيف ، فكان جوابه انه لا يستطيع هذه السنة التفكير بالاصطياف . ففي اثناء هذا العمل المتواصل اصابه انزعاج ظنّه وقتياً فلم يعالجه حقّ المعالجة. وصباح الخامس والعشرين من تموز ، اذ نهض كالعادة واوشك ان يبدأ بعمله المعتاد ، انطفأ فجأة بين يدي ابنته وشقيقته ، وهو واقف ، انطفاء المجاهد البطل الذي لا يُقهر .

وعند خبر وفاة نلينو ، ارسل لي فنسينك[1] (Wensink) ، خليفة سنوك هورگرونيه (Snouck Hurgronje) ، بطاقة حزن وجيزة ختمها بقول داود في رثائه لشاول ويوناتان : « كيف سقط الاقوياء ! » اجل ان هذا القول لفي محلّه : كان نلينو بالحقيقة قوياً في العلم وفي الحياة . وقوة الذكاء وقوة الارادة المبدعة وقوة الترفع جعلت حياتـه حياة جندي مجيد منتصر تخلد في المستقبل اعماله المفيدة كما تخلد ، في ذاكرة من عرفه ، صورة وجهه المنير الامثل .

---

١) لم يعش فنسنك ، بعد وفاة نلينو ، الا سنة وبعض السنة ، فانتقل من هذا العالم في ١٩ ايلول ١٩٣٩ . وسنخصّه به بحثاً في عددٍ مقبل من « المشرق » .